الفصل السادس والثلاثون
فى ذكرى ما يهب الحياة لأهل القاهرة
من أسبلة وخلجان وبرك وأحواض وآبار

بما أنه ليس من شىء أعز ولا ألذ من الماء عند جميع مخلوقات الله فقد أنزل فى ذلك آية كريمة على المصطفى ﷺ هى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ {الأنبياء: ٣٠}.

ولحاجة مدينة القاهرة بصفة خاصة إلى الماء لم يكن هناك ما هو أعظم ثوابا من توفير الماء لخلق الله فيها. فمنذ أن قَدِمها عمرو بن العاص فاتحا إلى يومنا هذا حكمها مائة وسبعون ملكا، وأقام كل منهم جامعا يتصل به سبيل، كما أنشأوا آلاف الأسبلة فى جهات أخرى وفى كل من هذه الأسبلة حمل عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف جمل من الماء كما أن سائر الوزراء والوكلاء والأعيان والأشراف أقام كل منهم سبيلا على رأس كل جهة يصعد إليه بسلم حجرى من ثلاث درجات أو أكثر، وهى أسبلة مزخرفة لها نوافذ ذات قضبان من النحاس وقد زينت بالقيشانى الصينى واليشم اليرقانى والرخام والصماقى. علاوة على ما بجانب القصور العالية وأسفل بعض البيوت من أسبلة جميلة ذات زخارف.

وجملة القول أنه كان فى القاهرة ـ على حد قول الغزالى ـ ٦٠٠٠ سبيل، أما الآن فهى ( )[1] سبيل، إضافة إلى إلى أسبلة كثيرة على رأس كل جهة وبين بعض الحوانيت.

أشهر أسبلة مدينة القاهرة

* **سبيل السلطان الغورى:**

أعظم وأشهر أسبلة القاهرة، وبما أنه يقع فى مكان مزدحم من السوق السلطانية يزدحم الناس عليه، وهو يقدم الماء النقى من الصباح إلى المساء، وهو سبيل كأنه البحر الخضم فماؤه يقدر بحمل عشرين ألف جمل، وأوقافه عظيمة، وبنيانه متين، ومما يروى عنه أن صهاريجه الأربعة كلها من الرصاص ولذلك كان ماؤها عذب. كتب على شباكه بخط جلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ {الانبياء: ٣٠}.

(١) بياض فى الأصل.

* سبيل محمد اوكور باشا:

فى القلعة الداخلية:

- سبيل «باب القلعة» كذلك فيها من الماء حمل ١٠٠٠٠جمل.

- سبيل إبراهيم أغا رئيس الانكشارية:

يقع هذا السبيل أسفل مقر رئيس الانكشارية، وعلى نافذته تاريخ مسطور هو:

إبراهيم أغا الذى يتفكر فى عقباه

بذل همته فى مرضاة الله

فأقام مثل هذا السبيل الجميل

فقال كل من شرب من مائه الزلال تاريخه

إن هذا السبيل يمتلئ من ماء العين على الدوام

سنة ١٠٣٧

ويليه فى ازدحام الناس عليه:

- سبيل «السلطان الأشرف».

- سبيل «السلطان حسن».

وجملة القول أن كل أسبلة السوق السلطانية جارية الماء على الدوام، وإذا تعرضنا إلى وصف كل سبيل وتاريخه اقتضى ذلك إخراج مجلد ضخم خاص بها.

وفى عصرنا الحالى أنشأ عباس أغا المعزول من منصب أغا دار السعادة سبيلا جديدا فى مدينة القاهرة وهو سبيل ذو زخارف، وماؤه حمل ١٠٠٠٠ جمل، وكأنه متحف الصين، كما أقام فوقه مكتبا للصبيان.

- سبيل على أغا خازن السلطان محمد خان:

إنه سبيل مزخرف يهب الحياة لكل ظمآن وماؤه حمل ١٠٠٠٠ جمل، ومقام عليه كذلك مكتبا لصغار الصبيان.

- سبيل مصاحب أحمد أغا:

بالقرب من الداودية، إنه سبيل جميل عليه مكتب لصغار الصبيان وكأن فيه نقوش أرزنك وماؤه حمل ١٠٠٠٠ جمل.

- سبيل عبد الباقى الجورباجى:

بناه بالقرب من دار القوندقجى، وفوقه مكتب لصبيان المسلمين.

- سبيل الكتخدا الحبشى:

أقام محمد كتخدا الحبشى هذا السبيل ووكالة، بيد أن الزمان تنكر له وبيعت الوكالة والسبيل فى المزاد، واشتراهما مصطفى أغا كتخدا آغا دار السعادة يوسف أغا فى اسطنبول، وأرسل إليه يوسف أغا البنات، الحُجج والإيصالات. وهذا السبيل أكثر إزدحاما من كل الأسبلة وماؤه بقدر ما يحمل ٦٠٠٠٠ جمل. وعليه مكتب صبيان ذو زخارف.

- سبيل ذى الفقار كتخدا:

فى باب النصر، ومكتبه جديد مزخرف، وبالقرب منه سبيل آخر لـلكتخدا الحبشى وهو كذلك سبيل عظيم وماؤه حمل ١٠٠٠٠ جمل.

وجملة القول أنه فى خلال سبعة أعوام أقيم ٧٠ سبيلا جديدا، أما أسبلة سلاطين السلف فكلها مبطنة من الداخل بالرصاص، وفى شهر يوليو تكون مياهها باردة كالثلج وهذه الأسبلة يطهرها الوقف كل عام ويملأونها مرة أخرى من النيل فليس فى القاهرة نعمة أعظم من نسمة الماء، والنيل يبعد عن مدينة القاهرة بمقدار ساعة.

وفى حى سيدى الشيخ عقبة الجهينى أقام «خاصكى محمد باشا» تكية كأنها القلعة وضريحا ومبرة ومدرسة وسبيلا، وماء هذا السبيل حمل ١٥٠٠٠ جمل، وعلى نافذته تاريخ هو:

- لسبيل هذا السبيل هو ماء الكوثر سنة ( )[1]

وعلاوة على الأسبلة الأربعة آلآف فى القاهرة يجلب الماء من النيل عدة مئات الآلآف من الحمر والخيول والجمال إلى الشوارع الرئيسية، وتغص الشوارع بهؤلاء السقائين وهم يرددون «ظهرك، جنبك، هشك» بحيث يتعذر المرور فى هذه الشوارع. ومع ذلك فكل هذه المياه لا تكفى أهل القاهرة وهم فى كثرة مياه البحر.

(١) بياض فى الأصل.

وطبق ما جاء فى سجلات رئيس السقائين أن عدد السقائين النصارى ٢٦٠٠٠ سقاء وكل صاحب قصر له سقاء يجلب له الماء على ظهر الجمل والجواد.

إحدى عجائب مدينة القاهرة

فى مدينة القاهرة إذا هطل ماء الرحمة يشح الماء، أما إذا هطل فى بلاد أخرى يسر الناس جميعا ويستغرقون فى ماء الرحمة. أما إذا هطل المطر فى القاهرة أكل أهلها بعضهم بعضا من شح الماء لأن تراب القاهرة كأنه ملئ بالزيت فإذا ما هطل المطر ما استطاع أحد الخروج من داره، وتعذر سير الحمر والجياد والجمال فى الطرق لجلب الماء وبذلك يقع قحط الماء ويبيع السقاء قربة الماء بخمس بارات، أما الأسبلة فتفتح وتوزع منها المشروبات ويشح الماء، ولذلك يأمر الصوباشى ٥٠٠٠ زبال يحمل التراب اليابس على حمرهم وفرش الطريق العام به، ويبدأ الناس فى السير فى الطريق بسهولة، فليس فى القاهرة أرصفة لذلك توحل شوارعها وتصبح وكأنها شوارع مدينة «سلستره» والعياذ بالله. ولكون مصر بلد ساحلى يهطل المطر فيها مرة أو مرتين فى كل عام.

وإذا ما هطل المطر على الدوام كما هو الشأن فى بلاد الترك لخربت مصر.

ففى عام ٨٣ دام هطول المطر والثلج سبعة أيام بلياليها ولم يستطع الناس المضى إلى المصلى لأداء صلاة الاستسقاء وقد انهدمت بيوت اثنين وعشرين من بيوت الفلاحين والحضر وشح الماء ونزل الثلج على أسطح المنازل بلونه الأبيض الناصع فكان أبناء العرب يقولون: «اش هذا أنزل القطن من السماء» أما الترك حينما شاهدوا ذلك قالوا: «الحمد لله، انظروا إلى رحمة الله» وكانوا يأكلون الثلج المتساقط هذا. وكان أبناء العرب يجتمعون هنا وهناك ويضعون قطع الثلج فى أفواههم وعندئذ كانوا يقولون: «الحاد يا برد النار». أى أنه يحرقهم كالنار. ولكن ذاب الجليد واختفى ودام هطوله فى البحيرة خمس ساعات كاملة، وفى تلك السنة نزل البرد كل حبة فيه فى قدر الدرهم.

ولله الحمد فالنبات فى مصر ليس فى حاجة إلى المطر لأن النيل إذا ما فاضت مياهه غمر أقاليم مصر، وجعلها بحرا قانى الحمرة، ثم ينحسر الماء ويزرعون الأرض، وينضح

المحصول فى ستين يومـا، ويجمعونه فى مخازنهم، ولذلك لا تمس حـاجتهم إلى المطر ويجرى هذا مجرى المعتاد بإذن الله . . . يا لها من حكمة عجيبة.

* * *